



سيرة بهاء الدين العاملي وأبرز منجزاته^١

١٥٤٦-١٦٢٢

هو محمّد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني^٢. وُلد في بعلبك في ١٣ ذي الحجّة سنة ٩٥٣هـ - ١٥٤٧م، وتوفي في أصفهان في ١٢ شوال سنة ١٠٣١هـ - ١٦٢٢م، وتُقلّ قبل دفنه إلى طوس، فدُفِنَ في داره قرب الحضرة الرضويّة على صاحبها السلام، وقبره هناك مشيّد فخم مشهور، يزوره من يقدُّ إلى خراسان من الزائرين والسيّاح.

والبهائيّ من ألمع العلماء اسمًا، وأبعدهم ذكرًا في القرن الحادي عشر الهجريّ، قد أخذ بأسباب الثقافة الإسلاميّة، وهو أحد الأئمّة الكبار المنفردين بالعلوم المعروفة في ذلك العصر. جمع إلى الفقه والآثار والأصول والآداب، الهندسة والفلك والحساب والجبر وجميع أقسام الرياضيات بإتقان عجيب وهضم غريب، كما جمع إلى كلّ ذلك الحكمة والكلام وبعض العلوم التي لم يُحْمَ حولها سواه كما قيل^٣.

وقد حظي "البهائيّ" بإعجاب العلماء وإطرائهم، [ف]أفاضوا في مدحه، ومن هؤلاء أحمد بن عليّ المنيني شارح قصيدة "البهائيّ" المسماة "وسيلة الفوز والأمان في مدح صاحب الزمان"، والتي فرغ المنيني من شرحها عام ١١٥١هـ. قال فيه: "... صاحب التصانيف والتحقيقات، وهو أحقّ من كلّ حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه، وإتحاف العالم بفضائله وبدائعها. وكان أمة مستقلّة في الأخذ بأطراف العلوم، والتضلّع من دقائق الفنون، وما أظنُّ أنّ الزمان يسمح بمثله، ولا جاء بِنَدِّه"^٤.

ووصفه تلميذه السيد عزّ الدين حسين بن حيدر الكركي العامليّ بقوله: "... وشيخنا هذا - طاب ثراه - قد كان أفضل أهل زمانه، بل كان متفرّدًا بمعرفة بعض العلوم الذي [التي] لم يُحْمَ حولها أحد من أهل زمانه ولا قبله... يميل إلى التصوف كثيرًا... منصفًا في البحث..."^٥.

وأطراه صاحب سُلالة العصر^٦، على عادته في التسجيع والإطناب، ووصفه بأنّه جمّع فنون العلم، وتفرّد بصنوف الفضل. كما أفاض في إطرائه كثيرون غير هؤلاء، الأمر الذي يدلُّ على مكانته الاجتماعيّة، وشخصيّة العلميّة ذات الأثر الكبير في يُقظّة الجيل الذي عاشه، وفي الحركة العلميّة المُنتجة.

^١ نقلًا عن: نعمة، العلامة الشيخ عبد الله، "البهائيّ" في فلاسفة الشيعة، حياتهم وأراؤهم، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، [د. ت.]، ص ٣٩٨ - ٤٠٨. ونشير إلى أنّ الحواشي مُثبّنة كما وردت لدى الشيخ نعمة، وأضفنا إليها بين معكوفين (□) اسم المُؤلّف وعنوان المرجع كاملين.

^٢ الحارثي نسبة إلى الحارث الهمدانيّ صاحب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

^٣ أنظر [: الخوانساري، الميرزا محمّد باقر الموسويّ الأصبهانيّ]، الروضات [روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات]، ص ٥٣٢.

^٤ أنظر شرح [قصيدة] وسيلة الفوز والأمان المطبوع في آخر الكشكول [للبيهائيّ]، ص ٣١٧.

^٥ [الخوانساري، الميرزا محمّد باقر الموسويّ الأصبهانيّ]، روضات [روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات]، ص ٥٣٢.

^٦ [هو ابن معصوم، علي بن ميرزا أحمد بن محمّد معصوم الحسيني (١٠٥٢ - ١١٢٠ هـ / ١٦٤٢ - ١٧٠٨ م)، صاحب كتاب سُلالة العصر في محاسن الشعراء بكلّ بصر].

[ويكفي] البهائي أثرًا ونفوذًا علميًا أنّه ظهر في تلك الفترة، التي كانت تغطّي أكثر شعوب الأرض في سبات عميق. قد تحدّرت فيها المعرفة والفكر، وركدت فيها الحركة الثقافية، وعمّها الضعف والانحلال في أكثر جوانب الحياة، كلّ ذلك بسبب الأحداث والنوازل التي انصبّت على كثيرٍ من الدول العربيّة والإسلاميّة، في مختلف الأقطار، التي شملها الضعف والوهن، وحال ذلك دون نشاط الثقافة فيها.

وإنّه رغم كلّ ذلك فقد كانت هناك واحات في بعض الأقطار الإسلاميّة مُعشّبة مُخصّصة بالمعرفة والفكر، فيها مدارس علميّة، قد أينت ثمارها، وبلغت أوج نشاطها.

وكان هناك في جنوب لبنان بقعة يُطلق عليها اسم جبل عامل تتفجّر فيها الطاقة العلميّة، وتنشط فيها المعرفة من عقابها، وتستفيق من سباتها، لتكون هذه البقعة جبل عامل التي اختصّها الله سبحانه بعنايته، منبت العلماء والمفكرين، والمُهداة الميامين، الذين حملوا في تلك الفترة الدامسة مشعل العلم والفكر، لتهتدي شعوب أخرى على سناه. وحسبنا أن نذكر منهم: علي بن عبد العالي الميسّي الشهير بالمحقّق الميسّي العامليّ، وعلي بن عبد العالي الكركيّ المعروف بالمحقّق الثاني صاحب المؤلّفات القيّمة، وزين الدين بن علي العامليّ الجبعيّ، المعروف بالشهيد الثاني، ومحمّد بن مكّي الجزينيّ العامليّ الشهير بالشهيد الأوّل، والشّيخ حسين عبد الصمد العامليّ والد البهائيّ، وفي أمثالهم من رواد العلم والفكر، الذين أفادوا أجيالهم وأجيالاً طويلة من بعدهم بما خلفوه من آثار غنيّة بالطاقة العلميّة الخصبّة، وبالمدد الفكريّ العارم، الذي لا يزال إلى اليوم مصدرًا كبيرًا للمعرفة في كثير من أنحاء العالم الإسلاميّ.

ومن نفس هذه الواحة الخصبّة جبل عامل، وفي هذه الفترة بالذات، ظهر البهائيّ رائدًا علميًا، يتّسع عقله لكلّ أنواع الثقافة التي عُرفت في عصره، وتفاعل آثاره في تفكير المجتمع الذي عاشه فعلّ الكهرياء، لما فيها من قوّة علميّة، ونشاط فكريّ، في ميادين المعرفة والعلم.

وقد ظلّت آثاره في الهندسة والفلك والرياضيات وسواها، زمانًا طويلًا من بعده حتّى الآن، مرجعًا لكثيرين من علماء المشرق، كما أنّها كانت منبعًا يستقي منه طلاب المدارس والجامعات.

كما أنّ آثاره في الفلسفة والكلام والفقّه والحديث والأدب والشعر، لا تقلّ شأنًا وأهميّة عن آثاره في الفلك والرياضيات. على أنّ شهرته في هذه العلوم الأخيرة غلبت عليه، وبخاصّة في العصور الأخيرة، وذلك بسبب مؤلّفاته في هذه المواضيع، التي نالت إعجاب العلماء والطلاب على السواء، ممّا دفعهم إلى شرحها والتعليق عليها، وتدريسها في كثير من عواصم المشرق الإسلاميّ.

ويبرز على تفكير بهاء الدين الجاهان واضحان هما:

أولًا: الاتجاه الرياضيّ، الذي يسيطر على كثير من محاولاته ومعالجاته لمسائل علميّة، وبخاصّة لمسائل ما وراء الطبيعة. يبدو هذا الاتجاه في صفحات كثيرة من كتابه **الكشكول**، حين يعرض "اللاتناهي"، فهو يقول ببطلانه، مبرهنًا على ذلك ببراهين رياضيّة وهندسيّة، تذكّرنا بطريقة "الكنديّ الفيلسوف" الذي عرضنا في محلّه لشيء من اتجاهاته. كما تذكّرنا بطريقة نصير الدين الطوسيّ التي تتمثّل فيما [في ما] أقامه من دليل على بطلان اللاتناهي، والتسلسل أيضًا، في كتبه الكلاميّة، أمثال التجريد، وفوائد الاعتقاد، وسواهما.

ثانيًا: الاتجاه العرفانيّ أو الصوفيّ، الذي ينعكس في كثير من مؤلفاته انعكاسًا بارزًا. ولعلّ كتابه **الكشكول** يعطينا أوضح صورة عن هذا الاتجاه. فقد أكثر فيه من ذكر أقوال الزهاد والعباد والعارفين والمتصوّفة، وقصصهم، كما نجد انعكاس ذلك بارزًا في أقواله وأشعاره بصورة عامة.

حياته

وأصلُ بهاء الدين من جبل عامل، وهو القسم الجنوبيّ من لبنان، من بلدة جبع أو جباع التي هي موطن آبائه وأجداده، وإليها ينتسب كلُّ من والده الشيخ حسين عبد الصمد الجبعيّ العامليّ، وجدّه شمس الدين محمّد الجباعيّ صاحب المجموعة الشهيرة، التي ينقل عنها كثيرًا بهاء الدين العامليّ في **الكشكول**.

والبهائيّ نفسه يصرّح بأنّ أصله من جبل عامل، فقد نقل عنه محمّد تقي المجلسيّ: إنّ البهائيّ كان يقول: "أباؤنا وأجدادنا من جبل عاملة، كانوا دائمًا مشغولين بالعلم والعبادة والزهد، وهم أصحاب كرامات... ولمّا شربنا ماء العجم سلّبتنا جميع ذلك". ولا زال إلى اليوم في جبل عامل بعض الأسر تنتمي إلى أخيه عبد الصمد، وهي أسرة آل مروّة^١.

وقد وهَمَّ كثيرٌ من الكتّاب والمؤرّخين، فنسبوه إلى "أمل" الواقعة في شمالي إيران، وقال بعض هؤلاء: إنّهُ وُلِدَ في بلدة "أمل" الخراسانيّة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر جيحون.

وآخر من وقع في هذا الوهم الأستاذ قدرّي حافظ طوقان في كتابه **تراث العرب العلميّ** فقد قال: "أما القول بأنّه وُلِدَ في بعلبك فبعيد عن الصواب، بل هو خطأ محض، وأرجّح أنّ قولهم هذا يرجع إلى الخلط بين جبل عامل في سوريا، وبين أمل، وقد يكون هذا الخلط هو الذي جعلهم يقولون بمولده في بعلبك، وقد يكون أيضًا هو الذي جعل العلماء يسمّونه بهاء الدين العامليّ"^٢. وقد نُشِرَ هذا الخطأ في دائرة المعارف اللبنانيّة في مادّة أمل. ولا ريب أنّ ما ذكره طوقان ليس بصواب حتمًا، وهو من الأوهام التي لم يعتمد [فيها] على سند.

ولسنا بحاجة إلى إثبات أنّ البهائيّ هو "عامليّ" لا "أمليّ"، بل يكفينا الرجوع إلى ما كتبه عنه تلميذه الحرّ العامليّ في كتابه **أمل الآمل في علماء جبل عامل**، وما كتبه عنه أحمد المنيني في شرحه لقصيدة البهائيّ المسنّاة **وسيلة الفوز والأمان**، وإلى مؤلفاته المطبوعة مثل **مفتاح الفلاح**، و**كتاب الأربعين**، و**الكشكول** التي يصرّح فيها بنسبته إلى جبل عاملة.

هذا بالإضافة إلى ما ذكره علماء الرجال وأصحاب التراجم من الشيعة، مثل الخوانساري في **الروضات والسيد علي خان في سلافة العصر**، وما كُتِبَ عن أبيه وإخوته وجدّه في كتب التراجم والرجال، وهي كلّها تثبت أنّه كان عامليًا لا أمليًا، وبخاصّة تصريحه "للمجلسيّ" الذي هو من المعاصرين له، على ما سلف.

وانتقل به والده الشيخ حسين بن عبد الصمد العامليّ إلى إيران، وهو صغير، وعمره إذ ذاك سبع سنوات، وقيل أقلّ من ذلك، على أثر مقتل أستاذه الشيخ زين الدين العامليّ، الشهير "بالشهيد الثاني" المقتول سنة ٩٦٦هـ.

^١ انظر [: الأمين، السيد محسن]، أعيان الشيعة، ج ٢٦، ص ٢٥٩.

^٢ انظر [: طوقان، قدرّي حافظ]، تراث العرب العلميّ، ص ٤٢٧.

أما أساتذته فقد عرفنا منهم: والده حسين بن عبد الصمد العامليّ، وهو من أعلام العلم والفقه والأدب في ذلك العهد، وقد توفّي عام ٩٧٤هـ. والمولى عبد الله بن حسين اليزيديّ المتوفّي عام ٩٨١ هـ من أساتذة المنطق والحكمة، وهو صاحب الحاشية في المنطق التي لا تزال تُدرّس في جامعات "النجف" و"قم"، وجميع العواصم الشيعيّة العلميّة إلى اليوم. وطبيعيّ أن تكون ثقافة البهائيّ العامّة قد أخذها عن عدّة أساتذة عادة. وربما كان تعرّفه في أثناء سياحته الطويلة على شخصيّات علميّة وأديبة وسواها قد أكسبته ثقافة وعلماً. وما زالت مصادر كثيرة لثقافته مجهولة لدينا، ولم أجد من مؤرّخيه من عني بذلك، وغاية ما قاله هنا: إنّه درس على جهابذة عصره.

وللبهائيّ تلاميذ كثر، نهلوا من مدرسته، وأخذوا عنه، كانوا من أعلام عصرهم في العلم والمعرفة. ومن هؤلاء:

١. الشيخ جواد بن سعد الله البغداديّ الكاظميّ المعروف بالفاضل الجواد الكاظميّ، درس على البهائيّ في أصفهان، حتّى أصبح من اللامعين في المعقول والمنقول والرياضيّات، وغير ذلك. وقد شرح بعض كتب أستاذه البهائيّ مثل خلاصة الحساب، وزبدة الأصول^١.
٢. ملّا محسن الفيض الكاشانيّ المتوفّي عام ١٠٩١ هـ، وهو من الفلاسفة المعروفين.
٣. السيّد رفيع الدين محمّد بن حيدر الطبطبائيّ الحسينيّ النائيّ المتوفّي عام ١٠٨٢ هـ، وهو من أئمّة الفلسفة المشهورين.
٤. الشيخ محمّد بن عليّ التبنينيّ العامليّ.
٥. زين الدين بن محمّد بن حسن بن زين العامليّ من علماء الفقه والآثار.
٦. صدر المتألّهين الشيرازي.
٧. السيّد ماجد البحرانيّ، وجماعة كثيرون غيرهم^٢.

ونال بهاء الدين مكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة لديّ الصفويّين، ملوك إيران، وبخاصّة لدى الشاه عبّاس الصفويّ في أصفهان، وتولّى فيها مشيخة الإسلام، وألّف للشاه المذكور كتابه الجامع العباسيّ في الفقه.

وكان على صلة وثيقة بفيلسوف عصره السيّد الداماد، صلة صداقة وإخاء، وقد كانا معاً موضع تقدير الشاه عبّاس واحترامه، يسود بينهما الصفاء والودّ، وقد ذُكرت في كتب التراجم بعض القصص التي تمثّل هذا الصفاء الذي كان يسود بينهما. على أنّ ذلك لم يذهب بروح التنافس بينهما، شأن كلّ عالمين متعاصرين عادة، وُجد في مكان واحد، فقد ورّد أنّ البهائيّ حين صنّف كتابه الأربعين أتى به بعض الطلبة إلى السيّد الداماد فلمّا نظر فيه قال: إنّ هذا العربيّ رجل فاضل، لكنّه لمّا جاء في عصرنا لم يشتهر ولم يُعدّ عالماً^٣.

وقد سكن البهائيّ هرة مدّة طويلة، وأعجب بها وبمناخها، وله أرجوزة يصف فيها هرة، وهواءها، وماءها، وعنبها، وأنواع ثمارها، وهي أرجوزة طويلة، ويتحسّر في آخرها على فراقها ويقول:

يا حبّذا أيّامنا اللواتي مَصَّتْ لَنَا وَنَحْنُ فِي الْهَرَّةِ
نسترقّ اللذات والأفراحا ولا نَمَلُّ الْهَرَلَّ وَالْمَزَاحَا

انظر: القمّيّ، عبّاس، الكنى والألقاب، ج ٣، ص ٦.

^٢ انظر: الخوانساري، الميرزا محمّد باقر الموسويّ الأصبهانيّ، الروضات [روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات]، ص ٥٣٩.

^٣ انظر: الخوانساري، الميرزا محمّد باقر الموسويّ الأصبهانيّ، الروضات [روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات]، ص ٥٣٦.

وعيشنا في ظلّها رغيد والدهرُ مُسْعِف بما تريد^١

ولم تُرَق هذه الحياة بعينيّ البهائيّ، فأثر العزلة والسياحة، واستمرّت سياحته حوالي ثلاثين سنة، جاب في أثنائها مصر والعراق والحجاز وسوريا، التقى في خلالها بشخصيّات كثيرة علميّة وأدبيّة، وألّف كتابه **الكشكول** في سياحته وهو في مصر، وعاد إلى أصفهان، وعندما علم الشاه عبّاس حاكم الدولة الصفويّة بعودته إلى أصفهان ذهب إليها بنفسه، وأحاطه بالتحلّة والإكرام.

وقد بقيّ "البهائيّ" صاحب المقام الأوّل عند الشاه إلى أن وافاه حمامه بأصفهان سنة (١٠٣١ هـ)، ثمّ نُقِلَ ودُفِنَ في طوس في حوار الإمام عليّ الرضا عليه السلام.

ولم يسلم البهائيّ من نقد وطعن عليه، في دينه وعلمه، رغم شخصيّته العلميّة الشاملة والدينيّة، شأن العظماء والمفكرين الذين يسمّون بتفكيرهم على تفكير الناس. وقد خلّق له مركزه العلميّ الرفيع، ومكانته من ملوك إيران، منافسين وحاسدين، أثاروا من حوله الشكوك والظنون.

وذكر البهائيّ نفسه، في بعض سوانحه التي دوّنها في كتابه **الكشكول**، شيئاً من ذلك قال: "قد جرى ذِكرِي يوماً في بعض المجالس العالية فبلغني أنّ بعض الحِضار ممّن يدعيّ الوفاق وعادته النفاق، ويظهر الوداد وبغيته العناد، جرى في ميدان البغي والعدوان، وأطلق لسانه في الغيبة والبُهتان، ونسب إليّ من العيوب ما لم تُزلّ فيه، ونسيّ قوله تعالى: "أُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَحِيهِ"^٢. وقد أزرى به غير واحد من أهل العلم مثل المجلسيّ، وفيض الله التفرّيشيّ، ولم يوثقاه، وطعنا عليه لميله إلى التصفوّف.

وحمل عليه الشيخ عبد الله بن صالح البحرانيّ قائلاً: "إنّ له بعض الاعتقادات الضعيفة، كاعتقاد أنّ المكلف إذا بذل جهده في تحصيل الدليل، فليس عليه شيء إذا كان مخطئاً في اعتقاده، ولا يخلد في النار، وإنّ كان بخلاف أهل الحقّ". قال: وهو باطل قطعاً، لأنّه على هذا يلزم أن يكون علماء الضلال ورؤساء الكفار غير مخلّدين في النار، إذا أوصلتْهم شُبُههم وأفكارهم الفاسدة إلى ذلك من غير اتّباع لأهل الحقّ^٣. فحملة البحرانيّ هذه إمّا كان مصدرها مخالفة البهائيّ في رأيه لما عليه تفكير أمثال البحرانيّ، الذين لا يعتبرون العقل حُجّة في أمثال هذه المواضيع.

وما أحرى بأن يكون رأي البهائيّ المذكور منقبة ومأثرة، تدلّ على حرّيّة تفكيره، وسلامة طبعه، ولأنّ يكون رأيه هذا مدحاً له أولى من أن يكون ذمّاً. ولكنّ القصة قصّة روايتها عقائديّة، لا تتصل للدين بسبب، تتحكّم بتفكير الكثرة الساحقة من العلماء.

امتاز البهائيّ بشخصيّة علميّة كبيرة، ومكانة رائعة في جميع ميادين العلم، وبلغ من شأنه العلميّ لدى الناس حدّاً يكاد يُلحِقُه في عداد الشخصيّات الأسطوريّة. وقد نسّب الناس إليه غرائب وعجائب وأساطير كثيرة، تعبّر تعبيراً واضحاً عن أثر البهائيّ العلميّ، ونفوذه البالغ على أفكار الناس. فقد حُكي عنه أنّه استطاع أن يحطّم الدّرة، وأن يسيطر على طاقتها، وأن يستخدمها في الحاجات؛ وأنّ من مظاهر ذلك أن صنّع شمعة أوقدّها في أتون حمّام بأصفهان، وأنّها كانت تكفي لتدفئة حمّام بكامله مدّة طويلة، دون أن تتغيّر الشمعة. ويُنسب إليه أنّه صنّع ساعة دوّامة الحركة، دون أيّ حاجة إلى من يحرّكها^٤.

^١ انظر **الكشكول** [لبهائيّ]، ص ٧٣.

^٢ **الكشكول** [لبهائيّ]، ص ٧٧.

^٣ **الكشكول** [لبهائيّ]، ص ٧٧.

^٤ انظر أجوبة المسائل الدينيّة، عدد ٦، الدورة ٤، شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩، وهي نشرة تصدر في كربلاء - العراق، ص ٢٢٢.

كما تُنسب إليه غرائب كثيرة لا مجال لذكرها الآن. والأرجح أنّ شخصيّة البهائيّ في ميادين العلم والفنون، ومكانته الشهيرة من أكثر الثقافات التي عُرفت في عصره، والتي تجاوزت أصدائها في أنحاء العالم الإسلاميّ، قد نسجت من حوله حالة رائعة، كانت العامل القويّ في أكثر ما يُنسب إليه من غرائب وأساطير.

وللبهائيّ مؤلّفات وكتب قيّمة، حظيت باهتمام العلماء ودراساتهم، وأكثرها مطبوع، كما أنّ بعض كتبه في الحساب والهندسة والفلك قد نال عناية كثيرة، فُشِّرِحَتْ وعُلِّقَ عليها.

وتمتاز مؤلّفاته، بصفة عامّة، بأنّها خالية من الحشو، وأنّ قارئها لا يخرج منها إلّا بفائدة. ومؤلّفاته هذه قد تناولت جوانب كثيرة من الثقافة والفكر، وأتت على هذه الجوانب باستيعاب وهضم.

ويُعَدُّ البهائيّ من المخصبين في الإنتاج، فقد ترك أكثر من خمسين مؤلّفًا، وظلّت آثاره ومؤلّفاته مرجعًا يُؤخَذُ عنه ويُعتمَدُ عليه، ولا زال بعض كتبه في الحساب والهيئة يُدرّس في جامعات النجف وإيران وغيرهما إلى اليوم.